

الذكر والدعاء

س : ما حكم ذكر بعض أرباب الطرق الصوفية بلفظ «آه» ؟

ج : مع التسليم بأن غاية التصوف تصفية النفس مما يبعتها عن الله ، فإن الوسيلة المشروعة لذلك هي السير على منهج الله الذي وضعه لأوليائه وأعد لهم ثواب الأمن والسعادة كما قال سبحانه ﴿أَلَا إِنَّكَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٢) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا نَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٤﴾ [يونس : ٦٢ - ٦٤] .

ومن المنهج الديني لتصفية النفس ذكر الله ، وقد حثَّ الله عليه ووسَّع مجالاته وحدوده فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿١١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب : ٤١ ، ٤٢] وأسماء الله الحسنى خير ما يذكر به كما قال سبحانه ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف : ١٨٠] وقال ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء : ١١٠] وأسماؤه سبحانه المذكورة في القرآن والسنة ، حصرها بعض العلماء في تسعة وتسعين وقال إنها توقيفية وقال بعضهم : إنها أكثر من ذلك .

وبصرف النظر عن حصر أسماء الله ، وعن اختلاف العلماء في جواز ذكره بالاسم المفرد - فإن لفظ «آه» لم يثبت بسند صحيح أنه اسم من أسمائه تعالى . وعليه فلا يجوز الذكر به على ما رآه جمهور الفقهاء ، وما يروى من أن النبي ﷺ زار مريضاً كان يئن وأن أصحابه عليه الصلاة والسلام نهوه عن الأئين ، وأنه قال لهم «دعوه يئن فإنه يذكر اسماً من أسمائه تعالى» لم يرد في حديث صحيح ولا حسن كما قرره الثقات ، وما قيل في بعض الحواشي من أن لفظ «آه» الاسم الأعظم لا سند له .

وقد أفتى شيخ الجامع الأزهر المرحوم الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوي في هذه المسألة فقال ما نصه : إن هذا اللفظ المسئول عنه «آه» بفتح الهمزة وسكون الهاء - ليس من الكلمات العربية في شيء ، بل هو لفظ مهممل لا معنى له مطلقاً . وإن كان بالمد فهو إنما يدل في اللغة العربية على التوجع ، وليس من أسماء الذوات ، فضلاً عن أن يكون من أسماء الله الحسنى التي أمرنا أن ندعوه بها .. إلى أن قال : ولا يجوز لنا التعبد بشيء لم يرد الشرع بجواز التعبد به . وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»^(١).



س : يشعر الإنسان أحياناً بالضيق وتكثر عليه الأزمات ويحاول أن يتناول مهدئات ويتردد على بعض الأطباء فلا يجد الشفاء المطلوب ، فهل هناك آيات في القرآن أو توجد أحاديث أو ذكر لله يمكن أن يعالج هذه الأزمات؟

ج : من المعلوم أن الإيمان بالقضاء والقدر ، والصبر على الشدائد ، وتقوية الصلة بالله بالطاعة يساعد على مقاومة الأزمات النفسية ووساوس الشيطان ، وعلى حل المشكلات والهداية إلى الصراط المستقيم في أمور الدين والدنيا ، والنصوص في ذلك كثيرة . ومع ذلك وردت آثار صحيحة بالدعاء والذكر تساعد على التخلص من الأزمات أو تدفعها ، والمهم فيها أن يكون الإنسان مطيعاً لله بعيداً عن الحرام ، مخلصاً خاشعاً حتى يقبل الله منه الدعاء .

وهذا بعض ما ورد بطريق صحيح عن النبي ﷺ وهو مأخوذ من كتب مختصة بذلك مثل (الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار) للإمام النووي ، و مثل (عمل اليوم والليلة) لابن السني ، وهو أجمعها كما قال النووي .

١- مجلة الأزهر - المجلد الثالث سنة ١٣٥١ هـ ص ٤٩٩ .

١ - عند الخروج من البيت : روى أصحاب السنن عن أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا خرج من بيته قال : «بسم الله توكلت على الله ، اللهم إني أعوذ بك أن أزلَّ أو أُزَلَّ ، أو أضلَّ أو أُضَلَّ أو أظلم أو أُظلم ، أو أجهل أو يُجهل ، عليّ»^(١).

وروى الترمذي وقال حسن صحيح قوله ﷺ «من قال -يعني إذا خرج من بيته- بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله» يقال له : كُفيت ووقيت وهديت، وتنحى عنه الشيطان».

٢ - عند دخوله البيت : روى مسلم قوله ﷺ «إذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان لأعوانه ، لا مبيت لكم ولا عشاء».

٣ - في الصباح والمساء : روى أبو داود والترمذي قوله ﷺ «ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة : باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاث مرات لم يضره شيء»^(٢) وروى أبو داود وابن ماجه بأسانيد جيدة حديث «من قال إذا أصبح لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير كان له عدل عتق رقبة من ولد إسماعيل، وكتب له عشر حسنات وحط عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات وكان في حرز من الشيطان حتى يمسي . وإن قالها إذا أمسى كان له مثل ذلك حتى يصبح» وروى مسلم أن رجلاً شكاً إلى النبي ﷺ لدغة عقرب فقال له «أما لو قلت حين أمسيت : أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق لم يضرك شيء إن شاء الله».

٤ - عند كثرة الهموم والديون : روى أبو داود أن النبي ﷺ دخل المسجد في غير وقت الصلاة فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو إمامة ، فسأله عن جلوسه في غير وقت الصلاة فقال : هموم لزممتني وديون ، قال «أفلا أعلمك كلاماً إذا

١- قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

٢- قال الترمذي : حسن صحيح ، وفي رواية أبي داود «لم تصبه فجأة بلاء» .

قلته أذهب الله همك وقضى عنك دينك ؟ قل إذا أصبحت وإذا أمسيت : اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال» يقول أبو أمامة : ففعلت ذلك فأذهب الله تعالى همي وغمي وقضى عني ديني . وروى الترمذي حديثاً حسناً «لو كان عليك مثل جبل دينا أذاه الله عنك قل : اللهم اكفني بحلالك عن حرامك وأغنني بفضلك عمن سواك» .

٥ - عند النوم : أخرج البخاري حديث الشيطان الذي كان يسرق الزكاة التي يجرسها أو هريرة . وأنه علمه كلاماً يقوله ليحرسه من الشيطان ، فعرضه أبوهريرة على الرسول فأقره وقال «صدقك وهو كذوب» وهذا كلام الشيطان: إذا أويت إلى فراشك فاقراً آية الكرسي فلن يزال معك من الله حافظ ولا يقربك شيطان . وروى البخاري ومسلم قوله ﷺ «الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأ بهما في ليلة كفتاه» أي من الآفات ، أو كفتاه عن قيام الليل .

٦ - عند الكرب : روى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يقول عند الكرب : لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم» .

٧ - عند وسوسة الشيطان : قال تعالى ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [فصلت : ٣٦] ويستحب قول لا إله إلا الله لمن ابتلى بالوسوسة في الوضوء أو الصلاة أو غيرها ، فإن الشيطان إذا سمع الذكر خنس أي تأخر وبعد ، ولا إله إلا الله رأس الذكر^(١) .

٨ - عند تعويد الصبيان : في صحيح البخاري كان رسول الله ﷺ يعوّد الحسن والحسين : أعيدكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة .

١ - النووي في الأذكار ، ص ١٣٢ .

والهامة هي كل ذات سم يقتل كالحية وغيرها ، والجمع الهوام . وروى البخاري ومسلم أنه كان يعوذ بعض أهله ، يمسح بيده اليمنى ويقول : «اللهم رب الناس ، أذهب الباس ، اشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً».

٩ - عند المرض : روى مسلم أن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه شكى إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده ، فقال له «ضع يدك على الذي يألم من جسدي وقل بسم الله «ثلاثاً» وقل سبع مرات : أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر» وروى مسلم وغيره أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال : يا محمد اشتكيت؟ قال : «نعم» قال : بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك ، من شر كل نفس أو عين حاسد . الله يشفيك . باسم الله أرقيك».

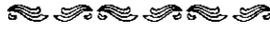
١٠ - عند هياج الريح : روى مسلم أن النبي ﷺ كان إذا عصفت الريح قال : «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به».

١١ - عند نزول المطر : روى البخاري أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى المطر قال «اللهم صيباً نافعاً» وإذا نزل المطر وخيف معه الضرر قال كما رواه البخاري ومسلم «اللهم حولنا ولا علينا ، اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر» والآكام جمع أكمة وهي التراب المجتمع ، والظراب جمع ظرب ، أي الرابية الصغيرة .

١٢ - عند الخوف من جماعة : روى أبو داود والنسائي بسند صحيح أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا خاف قوماً قال : «اللهم إنا نجعلك في نحورهم ، ونعوذ بك من شرهم».

١٣ - عند النزول في مكان يخاف منه : روى مسلم وغيره قوله ﷺ «من نزل منزلاً ثم قال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك».

١٤ - عند الرؤيا المفزعة : روى مسلم أنه ﷺ قال « إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليصق عن يساره ثلاثاً ، وليستعد بالله من الشيطان الرجيم ، وليتحول عن جنبه الذي كان عليه »^(١).



س : نقرأ في بعض الكتب الدينية عبارات على لسان بعض الصوفية كمدح الخمر والوصال والعشق ، فما حكم الدين في هذه العبارات ؟

ج : تحدث الإمام الغزالي في كتابه ، إحياء علوم الدين^(٢) ، عن هذا الكلام وعبر عنه بالشطح ، وقال إنه يعني صنفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية :

أحدهما : الدعاوي الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة ، حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب ، والمشاهدة بالرؤية والمشاهدة بالخطاب ، فيقولون : قيل لنا كذا وقلنا كذا ، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذي صُلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس ، ويستشهدون بقوله : أنا الحق ، وبما حكى عن أبي يزيد البسطامي أنه قال : سبحاني سبحاني ، وهذا فن من الكلام عظيم ضرره في العوام ، حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم ، وأظهروا مثل هذه الدعاوي ، فإن هذا الكلام يستلذه الطبع ، إذ فيه البطالة من الأعمال مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال ، فلا تعجز الأغنياء عن دعوى ذلك لأنفسهم ولا عن تلقف كلمات مخبطة مزخرفة . ومهما أنكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا : هذا إنكار مصدره العلم والجدل ، والعلم حجاب والجدل عمل النفس ، وهذا الحديث لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق . فهذا ومثله مما قد استطار في البلاد شرره ، وعظم في العوام ضرره ، حتى من نطق بشيء منه فقتله أفضل في دين الله

١ - هذا بعض ما اخترته من الروايات الصحيحة والحسنة ، ومن أراد الزيادة فليرجع إلى أذكار النووي وابن السني .

٢ - ج ١ ص ٣٢ .

من إحياء عشرة ، وأما أبو يزيد البسطامي رحمه الله فلا يصح عنه ما يحكى ، وإن سمع ذلك منه فلعله كان يحكيه عن الله عز وجل في كلام يردده في نفسه ، كما لو سمع وهو يقول ، إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ، فإنه ما كان ينبغي أن يفهم منه ذلك إلا على سبيل الحكاية .

والصنف الثاني من الشطح : كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائقة ، وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل ، وذلك إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خبط في عقله وتشويش في خياله لقلّة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه ، وهذا هو الأكثر ، وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيراده بعبارة تدل على ضميره ، لقلّة ممارسته للعلم وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيقة .

ويعلق الإمام الغزالي على ذلك فيقول : ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام ، إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقول ويحير الأذهان ، أو يحمل على أن يفهم منها معاني ما أريدت بها ، ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه ، وقد قال عليه السلام «ما حدّث أحدكم قوماً بحديث لا يفقهونه إلا كان فتنه عليهم» وقد قال عليه السلام «كلموا الناس بما يعرفون ، ودعوا ما ينكرون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله»؟

وهذا فيما يفهمه صاحبه ولا يبلغه عقل المستمع ، فكيف فيما لا يفهمه قائله ، فإن كان يفهمه القائل دون المستمع فلا يحل ذكره ، وقال عيسى عليه السلام : لاتضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء في موضع الداء ، وفي لفظ آخر : من وضع الحكمة في غير أهلها فقد جهل ، ومن منعها أهلها فقد ظلم ، إن للحكمة حقاً ، وإن لها أهلاً ، فأعط كل ذي حق حقه . انتهى .

تتمة : الحديث الأول كما قال العراقي حديث ضعيف ، وجاء في مقدمة صحيح مسلم أنه موقوف على ابن مسعود وليس مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، والحديث الثاني رواه البخاري موقوفاً على عليّ ، ورفعه الديلمي من طريق أبي نعيم .



س : ما حكم الدين فيما نراه في بعض حلقات الذكر من الضرب بالدفوف
والمزامير وغيرها ؟

ج : نقل القرطبي عن أبي بكر الطرطوشي رحمه الله تعالى أنه سئل عن قوم
يجتمعون في مكان يقرءون شيئاً من القرآن ، ثم ينشد لهم منشد شيئاً من الشعر
فيرقصون ويطربون ويضربون بالدف والشبابة ، هل الحضور معهم حلال أم لا ؟
فأجاب : مذهب الصوفية أن هذا بطالة وجهالة وضلالة إلى آخر كلامه ، قلت :
وقد رأيت أنه أجاب بلفظ غير هذا ، وهو أنه قال : مذهب الصوفية بطالة وجهالة
وضلالة ، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وأما الرقص والتواجد
فأول من أحدثه أصحاب السامري لما اتخذ لهم عجباً جسداً له خوار قاموا
يرقصون حوله ويتواجدون ، فهو دين الكفار وعباد العجل ، وإنما كان مجلس
النبي ﷺ مع أصحابه كأنها على رءوسهم الطير من الوقار : فينبغي للسلطان ونوابه
أن يمنعوا من الحضور في المساجد وغيرها ، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم
الآخر أن يحضر معهم ولا يعينهم على باطلهم . هذا مذهب مالك والشافعي وأبي حنيفة
وأحمد وغيرهم من أئمة المسلمين^(١) .



س : هل كان الصحابة رضوان الله عليهم يتمايلون كما يتمايل الزرع كلما
سمعوا ذكر الله تعالى ؟

ج : يقول الله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ
عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢] .

ذكر القرطبي عند تفسير هذه الآية أن وجل القلوب خوف من الله ، وفيه أيضاً
اطمئنان عند ذكر الله كما قال تعالى ﴿ تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ
جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر : ٢٣] وليس منه ما يفعله الجهال والأرذال

١ - حياة الحيوان الكبرى للدميري ، العجل .

من الزعيق والزئير والنهاق . ثم ذكر حديث الترمذي : وعظنا الرسول ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب .. ولم يقل العرباض بن سارية راوي الحديث : زعقنا ولا رقصنا ...

والإمام الغزالي في (الإحياء) تحدث عن الوجد والتأثر بالقرآن وذكر الله ، ولذلك مظاهر : إما بكاء وإما تشنج وإما غير ذلك ، وذكر أن الرسول ﷺ قال «شيتني هود وأخواتها»^(١) . وذكر حديث بكاء الرسول ﷺ عندما قرأ عليه ابن مسعود ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ٤١] .

ثم ذكر بعض نقول عن وجد الصحابة والتابعين عند سماع القرآن ، فمنهم من صعق ، ومنهم من غشي عليه ، ومنهم من مات ، وكلها أخبار بدون سند يعتمد عليه . ولكن يمكن أن تحدث ، فالطبيعة البشرية تتأثر بأشياء كثيرة ، وبعض الشعوب الآن أو بعض الأفراد عندما يسمعون شعراً أو كلاماً أو غناء أو موسيقى يتحركون حركات مختلفة ، إما بهز الرؤوس أو تمايل الجسم أو الرقص أو غير ذلك ، فلا مانع أن يكون بعض الصحابة وغيرهم قد تحرك جسمه عند سماع آيات من القرآن تؤثر بقوة على وجدانه وأعصابه ﴿ نَفْسَعِرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ وعند قشعريرة الجلد يظهر أثر على الأعصاب والعضلات بأية حركة .

ومع ذلك فالإسلام لا يقر شيئاً يتنافى مع الآداب والرجولة والكرامة ، كما لا يقر الرياء عند ذكر الله وعند الطاعة بوجه عام .



س : ما حكم الدين في حلقات الذكر التي يبدو الناس فيها كأنهم يرقصون ؟

ج : ثبت عن النبي ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم أنه قال «يقول الله : أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم» وروى مسلم وغيره أن النبي ﷺ قال «لا يقعد قوم

١ - رواه الترمذي وحسنه .

يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده» وروى البخاري ومسلم حديثاً جاء فيه «أن الله ملائكة سيارة يبتغون مجالس الذكر ، فإذا وجدوا مجلساً فيه ذكر قعدوا معهم ، وأن الله قد غفر لهؤلاء الذاكرين ولمن جلس معهم «هم القوم لا يشقى جليسهم».

يؤخذ من هذا أن مجالس الذكر مشروعة ، وأن الله يبارك أهلها ويرضى عنمن يشارك فيها ولو بمجرد الحضور دون ذكر ، وقد قال المحققون : إن الذكر كأية عبادة لا يقبل إلا إذا كان خالصاً لوجه الله ، لا رياء فيه ولا سمعة ، وإذا كان نابعاً من القلب يعبر عنه اللسان ، أما اللساني فقط مع الغفلة عن معنى الذكر وعدم الإحساس بجلال من يذكره الذاكر فلا أثر له في الوجدان والسلوك ، والله وحده هو الذي يقدره ، وكذلك إذا صحب الذكر أصوات صاخبة أو حركات خاصة تذهب الخشوع كان عبادة ظاهرية جوفاء خالية من الروح ، ومثل ذلك يقال إذا كانت هذه المجالس تؤذي الغير كالمرضى المحتاجين إلى الراحة أو المشتغلين بمذاكرة علم أو عبادة أخرى ، فقد روى أحمد عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ اعتكف في المسجد فسمعهم يجهرون بالقراءة وهم في قبة لهم ، فكشف الستور وقال : «ألا إن كلكم مناج لربه ، فلا يؤذين بعضكم بعضاً ، ولا يرفعن بعضكم على بعض بالقراءة».



س : يقول بعض الناس إن التسبيح على السبحة بدعة ، فهل هذا صحيح ؟

ج : السبحة «بضم السين المهملة وسكون الباء الموحدة» هي الخرز المنظوم والتي يعد بها الذكر والتسبيح ؛ وقيل : إنها غربية وتجمع على «سبح» بضم السين وقيل إنها مولدة .

وإحصاء الذكر بالسبحة من اختراع الهند ، كما يقول الأستاذ السيد أبو النصر أحمد الحسيني ^(١) ، اخترعه الدين البرهمي فيها ، ثم تسرب إلى البلاد والأديان

١ - مجلة ثقافة الهند ، سبتمبر ١٩٥٥ .

الأخرى ، وتسمى السبحة في اللغة السنسكريتية القديمة في الهند «جب ما لا» أي عقد الذكر .

ثم يقول : وتختلف الفرق البرهمية في عدد حباتها وفي ترتيبها ، فالفرقة الشيوائية سبحتها أربع وثمانون حبة ، والفرقة الوشونية سبحتها مائة وثمان حبات . والخلاف راجع إلى حاصل ضرب ١٢ «عدد الأبراج السماوية» في ٧ «عدد النجوم الظاهرة بها فيها الشمس والقمر عند الفرقة الأولى» أو في ٩ «عدد النجوم الظاهرة عند الفرقة الثانية بإضافة أحوال القمر الثلاثة» وكل سبع حبات في مجموعة متميزة.

وعند ظهور البوذية في الهند بعد البرهمية اختار رهبانها السبحة الوشونية «١٠٨» من الحبات . وعند تفرق طوائفها في البلاد قلد رهبان النصرانية هؤلاء فيها ، وكل ذلك قبل ظهور الإسلام .

جاء الإسلام فأمر بذكر الله كما أمر بسائر العبادات والقربات والطاعات ، وإذا كان الأمر بالذكر قد ورد مطلقاً بدون حصر في عدد معين أو حالة خاصة كما في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران : ١٩١] وقوله أيضاً ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿١١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب : ٤١ ، ٤٢] فقد وردت أحاديث تحدد عدده ووقته ، كما في ختام الصلاة بثلاث وثلاثين تسيحة ، وثلاث وثلاثين تحميده ، وثلاث وثلاثين تكبيرة ، وتمام المائة : لا إله إلا الله وحده.. وكما جاء في نصوص أخرى في فضل بعض الذكر عشر مرات أو مائة مرة ، وهنا يحتاج الذاكر إلى ضبط العدد ، فبأي وسيلة يكون ذلك ؟

ليس في الإسلام وسيلة معينة أمرنا بالتزامها حتى لا يجوز غيرها ، والأمر متروك لعرف الناس وعاداتهم في ضبط أمورهم وحصرها ، والإسلام لا يمنع من ذلك إلا ما تعارض مع ما جاء به . والمأثور أن النبي ﷺ كان يعقد التسيح بيده^(١) ،

١- كما رواه أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم وصححه عن ابن عمر .

وأرشد أصحابه إلى الاستعانة بالأنامل عند ذلك ، فقد روى أبو داود والترمذي والحاكم عن «بسرة» وكانت من المهاجرات ، أنها قالت : قال رسول الله ﷺ «عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس ولا تغفلن فتنسين التوحيد ، واعقدن بالأنامل فإنهن مسؤولات مستنطقات».

غير أن الأمر بالعد بالأصابع ليس على سبيل الحصر بحيث يمنع العد بغيرها ، صحيح أن العد بالأصابع فيه اقتداء بالنبي ﷺ لكنه هو نفسه لم يمنع العد بغيرها ، بل أقره ، وإقراره من أدلة المشروعية .

أ- أخرج الترمذي والحاكم والطبراني عن صفية رضي الله عنها قالت : دخل عليّ رسول الله ﷺ وبين يدي أربعة آلاف نواة أسبح بهن ، فقال «ما هذا يا بنت حبي»؟ قلت : أسبح بهن ، قال «قد سبحت منذ قمت على رأسك أكثر من هذا» قلت علمني يا رسول الله ، قال : «قولي سبحان الله عدد ما خلق من شيء»^(١).

ب- وأخرج أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه عن سعد بن أبي وقاص أنه دخل مع النبي ﷺ على امرأة ، وبين يديها نوى أو حصى تسبح ، فقال «أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا وأفضل؟ قولي : سبحان الله عدد ما خلق في السماء ، سبحان الله عدد ما خلق في الأرض سبحان الله عدد ما بين ذلك . وسبحان الله عدد ما هو خالق ، الله أكبر مثل ذلك ، والحمد لله مثل ذلك، ولا إله إلا الله مثل ذلك».

وإلى جانب إقرار النبي ﷺ لهذا العمل وعدم الإنكار عليه ، اتخذ عدد من الصحابة والسلف الصالح النوى والحصى وعقد الخيط وغيرها وسيلة لضبط العدد في التسبيح ولم يثبت إنكار عليهم .

١- ففي مسند أحمد - في باب الزهد - أن أبا صفية - وهو رجل من الصحابة - كان يسبح بالحصى وجاء في معجم الصحابة للبخاري أن أبا صفية ، وهو مولى

١- والحديث صحيح .

النبي ﷺ ، كان يوضع له نطع - فراش من جلد- ويحاء بزنبيل فيه حصى فيسبح به إلى نصف النهار ، ثم يرفع ، فإذا صلى الأولى أتى به فيسبح به حتى يمسي .

٢- وروى أبو داود أن أبا هريرة كان له كيس فيه حصى أو نوى يجلس على السرير ، وأسفل منه جارية سوداء ، فيسبح حتى إذا نفذ ما في الكيس فدفعته إليه يسبح ، ونقل ابن أبي شيبة عن عكرمة أن أبا هريرة كان له خيط فيه ألفا عقدة ، فكان لا ينام حتى يسبح به اثني عشر ألف تسبيحة .

٣- وأخرج أحمد أيضاً في باب الزهد أن أبا الدرداء كان له نوى من نوى العجوة في كيس ، فإذا صلى الغداة -الصبح- أخرجهن واحدة واحدة يسبح بهن حتى ينفدن .

٤- وأخرج ابن أبي شيبة أن سعد بن أبي وقاص ، كان يسبح بالحصى أو النوى ، وأن أبا سعيد الخدري كان يسبح أيضاً بالحصى .

٥- وجاء في كتاب (المناهل المسلسلة لعبد الباقي) أن فاطمة بنت الحسين كان لها خيط تسبح به .

٦- وذكر المبرد في (الكامل) أن علي بن عبدالله بن عباس المتوفى ١١٠هـ - كان له خمسمائة أصل شجرة من الزيتون ، وكان يصلي كل يوم إلى كل أصل ركعتين ، فكان يدعى «ذا النفثات» فكأنه كان يعد تركعه بالأشجار .

[لا يهمننا من هذا الخبر الذي لم تتوفر له مقومات الصدق عدد ما كان يصليه صاحب هذه الأشجار في اليوم الواحد ، وهو ألف ركعة ، إنها يهمننا هو أن وسيلة الإحصاء كانت الشجر].

وبناء على هذه الأخبار لم تكن «السبحة» المعهودة لنا معروفة عند المسلمين حتى أوائل القرن الثاني الهجري ، ويؤيد ذلك ما نقله الزبيدي في (تاج العروس) عن شيخه أن السبحة ليست من اللغة في شيء ولا تعرفها العرب ، إنها حدثت في الصدر الأول إعانة على الذكر وتذكيراً وتنشيطاً .

يقول الأستاذ الحسيني في المجلة المذكورة : ويظهر أن استعمالها تسرب بين المسلمين في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ، فإن أبا نواس ذكرها وهو في السجن ، في قصيدة خاطب بها الوزير ابن الربيع في عهد الأمين « ١٩٣ - ١٩٨ » .

أنت يا ابن الربيع ألزمتني النسك وعودتنيه والخير عادة

فارعوى باطلي وأقصر حبلي وتبدلت عفة وزهاده

المسايب في ذراعي والمصحف في لبتى مكان القلادة

وهو أقدم ذكر للسبحة بالشعر العربي فيما يعلم .

ولما شاعت بين المسلمين استعمالها بكثرة العامة من المشتغلين بالعبادة ، ولم يستحسنها علماءهم ، ولذلك لما رؤيت في القرن الثالث الهجري في يد « الجنيد » اعترض عليه وقيل له : أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة ؟ فقال : طريق وصلت به إلى ربي لا أفارقه (الرسالة القشيرية) .

وذكر أبو القاسم الطبري في كتاب (كرامات الأولياء) أن أبا مسلم الخولاني كانت له سبحة ، وأن كثيراً من الشيوخ كانت لهم سبحة يسبحون بها ، وذكروا في فوائدها أنها تذكر الإنسان بالله كلما رآها أو حملها ، وتساعده على دوام الذكر ، وعلى ضبط العدد .

وبقى استعمالها بين المسلمين بين راض عنها وكاره لها ، حتى كان القرن الخامس فانتشرت بين النساء المتعبدات ، إلى أن عمّت بين الناس جميعاً ، ويحتفظ في أضرحة بعض الأولياء بسبحة التي ينتظم بعضها ألف حبة ذات حجم كبير .

ولم يصح في مدحها خبر عن النبي ﷺ كالذي أخرجه الديلمي مرفوعاً « نعم المذكر السبحة » كما لا يصح ما نقل عن الحسن البصري أنه ، عندما قال له : أنت مع السبحة مع حسن عبادتك ؟ قال : هذا شيء استعملناه في البدايات ما كنا لنتركه في النهايات .

ولم ينقل عن أحد من السلف ولا من الخلف المنع من عد الذكر بالسبحة ، ولا يعدون ذلك مكروهاً ، وقد سئل بعضهم ، وهو يعد بالتسييح : أتعد على الله ؟ فقال : لا ، ولكن أعد له .

وجعل حبات السبحة اليوم مائة أو ثلاثاً وثلاثين راجع إلى الحديث الصحيح في ختم الصلاة .

وبناء على ما سبق ذكره يكون التسبيح بغير عقد الأصابع مشروعاً ، لكن أيهما أفضل ؟ يقول السيوطي : رأيت في كتاب (تحفة العباد) ومصنفه متأخر عاصر الجلال البلقيني فصلاً حسناً في السبحة قال فيه ما نصه : قال بعض العلماء : عقد التسبيح بالأنامل أفضل من السبحة لحديث ابن عمرو ، لكن يقال : إن المسبح إن أمن الغلط كان عقده بالأنامل أميل وإلا فالسبحة أولى . والسنة أن يكون باليمين كما فعل الرسول ﷺ وجاء ذلك في رواية لأبي داود وغيره (١).

هذا ، وقد تفنن الناس اليوم في صنع السبحة من حيث المادة والحجم والشكل واللون والزخرفة وعدد الحبات ، وعنى باقتنائها كبار الناس سواء أكان ذلك للتسبيح أم للهواية أم لغرض آخر ، ولا يمكننا أن نتدخل في الحكم على ذلك ، فالله أعلم بنياتهم ولكل أمرئ ما نوى .

وأقول : إذا كان النبي ﷺ قال : «واعقدن بالأنامل فإنهن مسئولات مستنطقات» فإن حبات المسبحة لا تحركها في يد الإنسان إلا الأنامل ، وهي ستسأل وتستنطق عند الله لتشهد أنه كان يسبح بها ، ولا يجوز التوسع في إطلاق اسم البدعة على كل ما لم يكن معروفاً في أيام الرسول ولا أن يجز الخلاف في السبحة إلى جدل عقيم قد يضر ، والأهم من ذلك هو الإخلاص في الذكر ولا تضر بعد ذلك وسيلته ، والله ينظر إلى القلوب كما صح في الحديث .



س : هل يشترط في الدعاء أن يقترن بأمور معينة حتى يستجيب الله سبحانه وتعالى له ؟ وما هي ؟

ج : قال تعالى ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] .
أمرنا الله في آيات كثيرة بالدعاء ووعده بالاستجابة ، كما جاءت بذلك أحاديث كثيرة والدعاء عبادة أو مخ العبادة كما صرح به في بعض الأحاديث ، ولكل عبادة أركان وشروط وآداب حتى تصح وتقبل .

١- انظر : الحاوي للفتاوى للسيوطي رسالة «المنحة في السبحة» ونيل الأوطار للشوكاني.

وقال العلماء : إن من شروط قبول الدعاء : حضور الذهن والقلب عند الدعاء ، فلا يكتفي الإنسان بمجرد تحريك اللسان بالدعاء وذهنه منصرف عن الله ولا يكفي حضور الذهن مع خمود العاطفة بل لابد من الرغبة في الإجابة والرهبة من عدمها واستحضار عظمة الله سبحانه . ويؤكد هذا ما جاء في نهاية الآيات التي ذكرت دعاء أيوب وذو النون وزكريا حيث قال رب العزة : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْتَرْعَبُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رِعَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء : ٩٠] .

فالداعي لابد أن يكون مطيعاً لله غير مقصر ، ومقبلاً على الطاعة بحب ومسارة وراغباً في الاستجابة راهباً من الطرد والحرمان ، خاشعاً حاضر الذهن والقلب .

وصح في الحديث أن أكل الحرام يمنع استجابة الدعاء حيث ذكر الرسول ﷺ الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يا رب يا رب ، ومطعمه حرام وملبسه حرام ومشربه حرام فأنى يستجاب له . كما جاء في الحديث : نصح الرسول لسعد أن يطيب مطعمه ليستجاب دعاؤه .

هذه الأمور التي لابد منها لاستجابة الدعاء ومن المندوبات : الطهارة واستقبال القبلة والدعاء بمأثور ، وتحري الأوقات والأماكن المباركة كالنصف الثاني من الليل وما بين الأذان والإقامة وعند رؤية الكعبة وساعة الإجابة يوم الجمعة ... وافتتاح الدعاء بالبسملة وحمد الله والصلاة والسلام على الرسول وختمه بالصلاة عليه أيضاً فالله أكرم من أن يقبل الصلاتين ويترك ما بينهما ، وهناك كتب وضعت في الدعاء يمكن الرجوع إليها . والله أعلم .



س : إذا كان رب العزة قال ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فلماذا أدعو كثيراً ولا يستجيب دعائي ؟

ج : أمرنا الله بالدعاء ووعد بالإجابة فقال سبحانه ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر : ٦٠] وذكر القرآن الكريم أن بعض الناس دعوا ربهم فاستجاب لهم كقوله ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١٢١)

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا
 وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾ [الأنبياء : ٨٣ ، ٨٤] وقوله ﴿وَذَكَرْنَا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا
 تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ،
 زَوْجُهُ ﴿٩٠﴾ [الأنبياء : ٨٩ ، ٩٠] وكقوله في غزوة بدر ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ
 لَكُمْ أَنْتُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ﴾ [الأنفال : ٩] .

إذا كان هذا كلام الله وهو صادق في الاستجابة لمن يدعو ، فما هو السر في أن
 بعض الناس يدعون ولا يستجاب لهم ؟

والجواب : أن الطبيب إذا وصف دواء قد يكون مركباً من عدة مواد ، ولا يكفي
 بذلك بل يبين للمريض كيفية الاستعمال بتحديد المواعيد وتحديد ما يتناول من طعام
 وما يمتنع عنه ، ولو نفذ المريض كل ذلك كان هناك أمل كبير في الشفاء ، وبخاصة
 إذا كان الطبيب مختصاً وثقة المريض به قوية .

لقد ذكر الله حوادث في استجابة الدعاء من مثل أيوب وزكريا وذو النون ،
 ولكن ذكر عقب ذلك مباشرة لماذا كان دعاؤهم وسيلة لكشف ما بهم من ضر
 وتحقيق ما يرجون من خير فقال ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْأَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا
 رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء : ٩٠] .

لابد من امتثال أوامر الله كلها من عبادات وغيرها ، مع إقبال النفس عليها والحب
 لها ، ولا بد من أن يكون الدعاء خالصاً صادراً من أعماق النفس ، مع استشعار عظمة
 الله ولطفه ورحمته ، ومع خوفه العظيم أن يرده خائباً ، وأن يكون ذهنه حاضراً غير
 شارد ، مركزاً غير مشتت ، ومن تمام المسارعة في الخيرات البعد عن الحرام ، فالحرام
 من أخطر العوائق التي تحول دون استجابة الدعاء ، وقد صح في الحديث «أن الرجل
 يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء ويقول : يا رب يا رب ، ومطعمه حرام
 وملبسه حرام فأنى يستجاب له» ^(١) وكان من وصية الرسول ﷺ لسعد بن أبي وقاص
 أن يطيب مطعمه ليستجيب الله دعاءه كما رواه الطبراني .

١- رواه مسلم .

وإذا كان الداعي على هذه الصفة المطلوبة ولم يستجب له حالاً بما دعا إليه ، فلا يقل : دعوت فلم يستجب لي ، فالحديث يقول « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل ، يقول : دعوت فلم يستجب لي »^(١) ، وإذا تأخرت الاستجابة بالمطلوب فقد تكون الاستجابة ببديل خير منه ، وقد تدخر ليوم القيامة وذلك أفضل من متعة الدنيا الزائلة ، فقد روى أحمد والبخاري ، وأبو يعلى بأسانيد جيدة عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال : « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث ، إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له في الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها » قالوا : إذا نكث ، قال « الله أكثر »^(٢) .

هذا ، وقد وجه سؤال إلى الصوفي إبراهيم بن أدهم : ما لنا ندعو فلا يستجاب لنا؟ فأخبرهم أنهم قصروا في طاعة الله وارتكبوا معاصيه . وذكر أمثلة لذلك ، وكلها وغيرها يدل على أن الداعي لابد أن يرضي الله أولاً حتى يكافئه الله بقبول دعائه ، وأن يكون قوي الإيمان والرجاء والثقة في استجابته الدعاء ، وألا يشك في وعد الله ، بل الأولى أن يشك في نفسه هو ، هل أدى الواجب لله أم لا ؟ والموضوع مبسوط في كتب الحديث والأخلاق يرجع إليها من يريد الاستزادة .



س : ما هي أحسن الأدعية التي تقال في الصلاة ؟

ج : الصلاة في اللغة معناها الدعاء ومنه قوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ أي ادع لهم بالبركة والنماء عند أخذ الزكاة ، وهي في الشرع أقوال وأفعال مفتوحة بالتكبير مختتمة بالتسليم .

فالصلاة التي نُصليها فيها إلى جانب الأفعال كالركوع والسجود أقوال كقراءة الفاتحة والتشهد والتسبيح والتكبير والدعاء في السجود وغيره ، فهناك علاقة وثيقة بين الدعاء والصلاة لأنها مناجاة الله مع حركات تشهد بالإخلاص في هذه المناجاة .

١- رواه البخاري ومسلم .

٢- وروى أحمد والترمذي وقال حسن صحيح قريباً من ذلك .

وقد بين الرسول ﷺ الصلاة بما فيها من أقوال وأفعال ، بينها بفعله ، وبقوله ، وقال «صلوا كما رأيتموني أصلي»^(١) ونظم الدعاء والذكر وجعل له مواطن هو أولى وأجدر بها ، وكتب السنة مملوءة بما كان يقوله ﷺ في كل ركن من أركان الصلاة .

وفي السجود بالذات حث النبي ﷺ على كثرة الدعاء وقال في سبب ذلك كما رواه مسلم «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثرُوا من الدعاء» لكن هل هناك دعاء في غير السجود ؟

نعم هناك دعاء الاستفتاح بعد تكبيرة الإحرام وصح منه : اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس .

وفي الركوع ثبت أن النبي كان يقول «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي»^(٢) وفي الاعتدال من الركوع دعاء هو قنوت الصبح وقنوت الوتر ، وفي الجلوس بين السجدين كان يقول «رب اغفر لي وارحمني واجبرني وارفعني وارزقني واهدني وعافني»^(٣) ، وبعد التشهد الأخير ثبت أنه كان يقول : «اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً كبيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»^(٤) ، وهناك أدعية أخرى غير ذلك جمعها كتاب الأذكار للنووي .

فالصلاة من أولها إلى آخرها محل للدعاء ، وأولى بالدعاء المواطن التي بينها النبي ﷺ كما سبق ، وقد ثبت أنه في صلاة طويلة كان يقرأ القرآن فإذا مر بآية فيها تسبيح سبح ، وإذا مر بسؤال سأل ، وإذا مر بتعوذ تعوذ ، ومع ذلك لو دعا الله في أي مكان فصلاته لا تبطل . غير أني أنبه إلى أن بعض الفقهاء قال إن الصلاة تبطل لو دعا الإنسان بما يشبه كلام الناس ، مثل اللهم زوجني فلانة ،

٢- رواه البخاري ومسلم .

١- رواه البخاري .

٤- رواه البخاري ومسلم .

٣- رواه البيهقي .

فالأولى أن يكون غير ذلك ، سواء أكان مأثوراً عن النبي ﷺ أم غير مأثور مع مراعاة الخشوع في الصلاة كلها ، فهو أرجى لقبولها وقبول ما فيها من دعاء .



س : لماذا ترفع الأيدي إلى السماء عند الدعاء ؟

ج : يقول الله سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ١١٥] في صحيح مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه ، قال : وفيه نزلت ﴿ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ وذلك في صلاة النافلة ، والمعنى أن الجهات كلها لله ، فمن توجه بعبادته إلى أية جهة فإن الله مطلع عليه وعالم به . والتعبير بوجه الله يراد به ذاته ، لأن الوجه يعبر به عن الذات لأنه أشرف الأعضاء ، وفي مثل قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا نَطَعُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ ﴾ يراد به قاصدين إياه بعملنا ، لانقصد غيره من المخلوقات ، أي نحن موحدون لانشرك به أحداً ، ونحصلون لانرائي بما عملنا .

ومن العبادة التي يتقرب بها إلى الله الدعاء . فإذا توجه الإنسان به إلى ربه في أي اتجاه فإن الله حاضر لا يغيب عالم لا يغفل ، وهو سبحانه قريب لابعيد ، بمعنى أنه - وإن كانت له المنزلة العليا - قريب من الناس بعلمه ﴿ مَا يَكُوثُ مِنْ تَجَوَّى ثَلَاثَةَ إِلَّا هُورًا يَعْهَرُ وَلَا حَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْفَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يَنْتَهُمُ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة : ٧] ولذلك قال سبحانه ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦] ولقربه من عباده لاداعي لرفع الصوت عند دعائه ، فإنه يعلم السر وأخفى ، قال تعالى ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٥] .

وإذ تبين أن الله قريب من الداعي ، وهو في الوقت نفسه في مكانته العالية وسموه اللائق بجلاله ، ظهر معنى مد اليدين عند الدعاء ، طلباً واستجداء لخيره وبره ، كأنه سبحانه ، وهو الأعلى ، أمام الداعي ، وهو الأدنى ، يمد إليه يديه ، فاليد المعطية هي العليا والأخذة هي السفلى .

وهذه الصورة الرمزية للمواجهة يشير إليه قول النبي ﷺ «إذا كان أحدكم في الصلاة فإنه يناجي ربه ، فلا يبزقن بين يديه ولا عن يمينه ...»^(١).

وقوله أيضاً «ما بال أحدكم يقوم مستقبل ربه فينزع أمامه ، أيجب أحدكم أن يستقبل فينزع في وجهه»^(٢).

فمد اليدين عند الدعاء تعبير عن المعتاد بين الناس عند طلب الأذنى من الأعلى ، مستجدياً متضرعاً ، وقد ثبت عن النبي ﷺ في عدة أحاديث أنه رفع يديه عند الدعاء ، في الاستسقاء وغيره ، وقد ساق البخاري عدة أحاديث في ذلك في آخر كتاب الدعوات وصف المنذري في هذا جزءاً . وقال النووي في شرح صحيح مسلم ، هي أكثر من أن تحصر قال : وقد جمعت فيها نحواً من ثلاثين حديثاً من الصحيحين أو أحدهما . قال : وذكرتها في آخر باب صفة الصلاة في شرح المهذب^(٣).

من هذه الأحاديث ما رواه البخاري عن أبي موسى الأشعري قال : دعا النبي ﷺ ثم رفع يديه ، ورأيت بياض إبطيه ، وما رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه عن سلمان الفارسي أن النبي ﷺ قال «إن ربكم حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً» أو قال «خائبين»^(٤).

ومن هنا قال العلماء بمشروعية رفع اليدين عند الدعاء بل بالندب اقتداء بالنبي ﷺ غير أن جماعة كرهوا رفع اليدين في غير الاستسقاء ، لحديث أنس «كان النبي ﷺ لا يرفع يديه في شيء من دعائه إلا في الاستسقاء فإنه كان يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه»^(٥) . والقائلون بالجواز في غير الاستسقاء ردوا على هؤلاء بأن كون أنس نفى الرؤية عنه لا يستلزم نفى رؤية غيره ، كما ثبت في الأحاديث الصحيحة ، والمثبت مقدم على النافي . أو يحمل حديث أنس على الرفع البليغ الذي

٢- رواه مسلم أيضاً .

٤- الترغيب والترهيب ج ٢ ص ١٩٥ .

١- رواه مسلم .

٣- نيل الأوطار ، ج ٤ ص ٩ .

٥- رواه البخاري ومسلم .

يرى فيه بياض الإبطين وهو لا ينافي الرفع بغير ذلك ، كمجرد مد اليدين وبسطهما عند الدعاء .

والبعض كره رفع اليدين مطلقاً في الاستسقاء وغيره ، لحديث مسلم عن عمارة ابن روية ، وقد رأى بشر بن مروان على المنبر رافعاً يديه ، فقال : قبح الله هاتين اليدين ، لقد رأيت رسول الله ﷺ ما يزيد على أن يقول بيده هكذا ، وأشار بأصبعه المسبحة^(١) ، ويرد عليهم بما رد على غيره .

يقول القرطبي^(٢) : والدعاء حسن كيفما تيسر ، وهو المطلوب من الإنسان لإظهار موضع الفقر والحاجة إلى الله عز وجل والتذلل له أو الخضوع ، فإن شاء استقبل القبلة ورفع يديه فحسن ، وإن شاء فلا ، فقد فعل ذلك النبي ﷺ حسبما ورد في الأحاديث وقد قال تعالى ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف: ٥٥] ولم ترد صفة من رفع يدين وغيرهما ، وقال تعالى ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا ﴾ [آل عمران: ١٩١] فمدحهم ولم يشترط حالة غير ما ذكر ، وقد دعا النبي ﷺ في خطبته يوم الجمعة وهو غير مستقبل القبلة . ٢هـ .

وكذلك روى عن ابن عمر أن النبي ﷺ رفع يديه وقال « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد » وفي صحيح مسلم عن عمر : رفع النبي ﷺ يديه بالدعاء يوم بدر . وعلى القول بمشروعية رفع اليدين عند الدعاء رويت عدة حالات في كيفية الرفع ، منها جعل ظهورهما إلى جهة القبلة وهو مستقبلها ، وجعل بطونهما مما يلي وجهه .

وروى عكس ذلك . ومنها جعل كفيه إلى السماء وظهورهما إلى الأرض ، وروى عكس ذلك وكان ذلك في الاستسقاء كما رواه مسلم^(٣) .

قال ابن حجر في الفتح : قال العلماء : السنة في كل دعاء لرفع بلاء أن يرفع يديه جاعلاً ظهر كفيه إلى السماء ، وإذا دعا بحصول شيء أو تحصيله أن يجعل بطن كفيه

٢- المرجع السابق .

١- تفسير القرطبي ج ٧ ص ٢٥٥ .

٣- نيل الأوطار ج ٤ ص ٩ .

إلى السماء . وكذلك قال النووي في شرح صحيح مسلم ، حاكياً لذلك عن جماعة من العلماء . وقيل : الحكمة في الإشارة بظهر الكفين في الاستسقاء دون غيره التفاؤل بتقلب الحال كما قيل في تحويل الرداء ^(١) .

هذا ، ويكره عند الدعاء النظر إلى السماء ، لحديث مسلم وغيره أن النبي ﷺ قال «ليتتهين أقوام عن رفعهم أبصارهم عند الدعاء في الصلاة إلى السماء ، أو ليخطفن الله أبصارهم» .

وقد يحمل النهي على رفع البصر في الصلاة ، أما في غيرها فلا مانع ، لرواية للبخاري جاء فيها : فنظر إلى السماء ، وكان ذلك في الاستسقاء ^(٢) .

ومسح الوجه باليدين بعد رفعهما في الدعاء ورد فيه عن عمر بن الخطاب أنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا رفع يديه في الدعاء لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه ^(٣) . وعن ابن عباس نحوه كما في سنن أبي داود . قال النووي : في إسناده كل واحد ضعف ^(٤) ، وجاء في (بلوغ المرام) شرح (سبل السلام) ^(٥) ، لابن حجر ، بعد ذكر حديث عمر : أخرجه الترمذي وله شواهد منها عند أبي داود من حديث ابن عباس وغيره ، ومجموعها يقضي بأنه حديث حسن ، فالوارد من ذلك ليس بصحيح ، بل ضعيف ، ولكن مجموع الشواهد يرفع درجتها إلى الحسن فتقبل . ٥٠هـ .

نكرر التنبيه فنقول : إن مد اليدين عند الدعاء يشبه ما يحدث عند طلب الفقير إحساناً من الغني فعند شدة الحاجة قد يجثو السائل على ركبتيه ، يستدر بهذا الوضع عطف المسئول ، وهو في هذا الوضع المتدلل يرفع يديه إلى أعلى يتلقى بهما الإحسان فالمسلم الذي يدعو ربه يرفع يديه دليلاً على تذلله وشدة حاجته ، ولذا كان النبي ﷺ يلجأ إلى ذلك ويبالغ فيه في الاستسقاء ونحوه ، وليس ذلك مستلزماً وجود الله في

١- نيل الأوطار ج ٤ ص ٩ .

٢- نيل الأوطار، ج ٤ ص ١٠ .

٣- رواه الترمذي وقال : غريب ، أي رواه راو واحد فقط .

٤- الأذكار للنووي ص ٣٩٩ .

٥- ج ٤ ص ٢١٩ .

السماء ، فهو سبحانه ، منزه عن المكان ، بل ذلك دليل على علو مكانته سبحانه وتعالى ، في أذكار النووي عن رفع اليدين ومسح الوجه ثلاثة أوجه للشافعية أصحها استحباب الرفع وعدم مسح الوجه ، والثاني الرفع والمسح والثالث عدم الاثنين .



س : هل ليلة النصف من شعبان لها فضل وهل كان النبي ﷺ يحتفل بها ، وهل هناك صلاة مخصوصة أو دعاء مخصوص يقال فيها ؟

ج : الكلام هنا في ثلاث نقاط :

١- النقطة الأولى : هل ليلة النصف من شعبان لها فضل ؟

والجواب : قد ورد في فضلها أحاديث صحح بعض العلماء بعضاً منها وضعفها آخرون وإن أجازوا الأخذ بها في فضائل الأعمال . ومنها حديث رواه أحمد والطبراني «إن الله عز وجل ينزل إلى السماء الدنيا ليلة النصف من شعبان يغفر لأكثر من شعر غنم بني كلب ، وهي قبيلة فيها غنم كثير»^(١).

ومنها حديث عائشة رضي الله عنها ، قام رسول الله ﷺ من الليل فصلي فأطال السجود حتى ظننت أنه قد قبض ، فلما رأيت ذلك قمت حتى حركت إبهامه فتحرك ، فرجعت ، فلما رفع رأسه من السجود وفرغ من صلاته قال : «يا عائشة - أو يا حميراء - ظننت أن النبي ﷺ - قد خاس بك»؟ أي لم يعطك حقك .

قلت : لا والله يا رسول الله ولكن ظننت أنك قد قبضت لطول سجودك ، فقال : «أتدريين أي ليلة هذه» ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال «هذه ليلة النصف من شعبان ، إن الله عز وجل يطلع على عباده ليلة النصف من شعبان ، فيغفر للمستغفرين ، ويرحم المسترحمين ، ويؤخر أهل الحقد كما هم»^(٢)

وروى ابن ماجه في سننه بإسناد ضعيف عن علي رضي الله عنه مرفوعاً - أي إلى النبي ﷺ «إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها ، فإن الله

١- وقال الترمذي : إن البخاري ضعفه .

٢- رواه البيهقي من طريق العلاء بن الحارث عنها ، وقال : هذا مرسل جيد . يعني أن العلاء لم يسمع من عائشة .

تعالى ينزل فيها لغروب الشمس إلى السماء الدنيا فيقول: ألا مستغفر فأغفر له، ألا مسترزق فأرزقه، ألا مبتلى فأعافيه، ألا كذا كذا حتى يطلع الفجر».

بهذه الأحاديث وغيرها يمكن أن يقال: إن ليلة النصف من شعبان فضلاً، وليس هناك نص يمنع ذلك، ف شهر شعبان له فضله، روى النسائي عن أسامة ابن زيد رضي الله عنهما أنه سأل النبي ﷺ بقوله: لم أرك تصوم من شهر من الشهور، ما تصوم من شعبان قال «ذاك شهر تغفل الناس عنه بين رجب ورمضان، وهو شهر ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين، وأحب أن يرفع عملي وأنا صائم».

٢- النقطة الثانية: هل كان النبي ﷺ يحتفل بليلة النصف من شعبان؟ ثبت أن الرسول عليه الصلاة والسلام احتفل بشهر شعبان، وكان احتفاله بالصوم، أما قيام الليل فالرسول عليه الصلاة والسلام كان كثير القيام بالليل في كل شهر، وقيامه ليلة النصف كقيامه في أية ليلة.

ويؤيد ذلك ما ورد من الأحاديث السابقة وإن كانت ضعيفة فيؤخذ بها في فضائل الأعمال، فقد أمر بقيامها، وقام هو بالفعل على النحو الذي ذكرته عائشة.

وكان هذا الاحتفال شخصياً، يعني لم يكن في جماعة، والصورة التي يحتفل بها الناس اليوم لم تكن في أيامه ولا في أيام الصحابة، ولكن حدثت في عهد التابعين. يذكر القسطلاني في كتابه المواهب اللدنية^(١)، أن التابعين من أهل الشام كخالد بن معدان ومكحول كانوا يجتهدون ليلة النصف من شعبان في العبادة، وعنهم أخذ الناس تعظيمها، ويقال إنهم بلغهم في ذلك آثار إسرائيلية. فلما اشتهر ذلك عنهم اختلف الناس، فمنهم من قبله منهم، وقد أنكر ذلك أكثر العلماء من أهل الحجاز، منهم عطاء وابن أبي مليكة، ونقله عبدالرحمن بن زيد بن أسلم عن فقهاء أهل المدينة، وهو قول أصحاب مالك وغيرهم، وقالوا: ذلك كله بدعة، ثم يقول القسطلاني:

اختلف علماء أهل الشام في صفة إحيائها على قولين ، أحدهما : أنه يستحب إحيائها جماعة في المسجد ، وكان خالد بن معدان ولقمان بن عامر وغيرهما يلبسون فيها أحسن ثيابهم ويتبخرون ويكتحلون ويقومون في المسجد ليلتهم تلك ، ووافقهم إسحاق بن راهويه على ذلك وقال في قيامها في المساجد جماعة : ليس ذلك ببدعة ، نقله عنه حرب الكرماني في مسائله . والثاني : أنه يكره الاجتماع في المساجد للصلاة والقصص والدعاء ، ولا يكره أن يصلي الرجل فيها لخاصة نفسه ، وهذا قول الأوزاعي إمام أهل الشام وفقههم وعالمهم .

ولا يعرف للإمام أحمد كلام في ليلة النصف من شعبان ، ويتخرج في استحباب قيامها عنه روايتان من الروايتين عنه في قيام ليلتي العيد ، فإنه في رواية لم يستحب قيامها جماعة ، لأنه لم ينقل عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه فعلها ، واستحبها في رواية لفعل عبدالرحمن بن زيد بن الأسود لذلك ، وهو من التابعين ، وكذلك قيام ليلة النصف من شعبان لم يثبت فيها شيء عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه ، إنما ثبت عن جماعة من التابعين من أعيان فقهاء أهل الشام ، انتهى ملخصاً من اللطائف . هذا كلام القسطلاني في المواهب ، وخلاصته أن إحياء ليلة النصف جماعة قال به بعض العلماء ولم يقل به البعض الآخر ، وما دام خلافاً فيصح الأخذ بأحد الرأيين دون تعصب ضد الرأي الآخر .

والإحياء شخصياً أو جماعياً يكون بالصلاة والدعاء وذكر الله سبحانه ، وقد رأى بعض المعاصرين أن يكون الاحتفال في هذه الليلة ليس على هذا النسق وليس لهذا الغرض وهو التقرب إلى الله بالعبادة ، وإنما يكون لتخليد ذكرى من الذكريات الإسلامية ، وهي تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى مكة ، مع عدم الجزم بأنه كان في هذه الليلة فهناك أقوال بأنه كان في غيرها ، والاحتفال بالذكريات له حكمه . والذي أراه هو عدم المنع ما دام الأسلوب مشروعاً ، والمهدف خالصاً لله سبحانه .

٣- النقطة الثالثة : هل هناك أسلوب معين لإحيائها وهل الصلاة بنية طول العمر أو سعة الرزق مشروعة ، وهل الدعاء له صيغة خاصة ؟

إن الصلاة بنية التقرب إلى الله لا مانع منها فهي خير موضوع ، ويسن التنفل بين المغرب والعشاء عند بعض الفقهاء ، كما يسن بعد العشاء ومنه قيام الليل ، أما أن يكون التنفل بنية طول العمر أو غير ذلك فليس عليه دليل مقبول يدعو إليه أو يستحسنه ، فليكن نفلًا مطلقاً . قال النووي في كتابه المجموع : الصلاة المعروفة بصلاة الرغائب وهي ثنتا عشرة ركعة بين المغرب والعشاء ليلة أول جمعة من رجب ، وصلاة ليلة النصف من شعبان مائة ركعة ، هاتان الصلاتان بدعتان منكرتان ، ولا تغتر بذكرهما في كتاب قوت القلوب - لأبي طالب المكي - وإحياء علوم الدين - للإمام الغزالي - ولا بالحديث المذكور فيها ، فإن كل ذلك باطل ، ولا يغتر ببعض من اشتبه عليه حكمهما من الأئمة فصنف ورقات في استحبابهما فإنه غالط في ذلك . وقد صنف الشيخ الإمام أبو محمد عبدالرحمن ابن إسماعيل المقدسي كتاباً نفيساً في إبطالهما فأحسن فيه وأجاد^(١) .

والدعاء في هذه الليلة لم يرد فيه شيء عن النبي ﷺ ، لأن مبدأ الاحتفال ليس ثابتاً بطريق صحيح عند الأكثرين ، ومما أثر في ذلك عن عائشة رضي الله عنها سمعته يقول في السجود «أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك»^(٢) .

والدعاء الذي يكثر السؤال عنه في هذه الأيام هو : اللهم يا ذا المن ولا يمن عليه ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا ذا الطول والإنعام ، لا إله إلا أنت ظهر اللاجين وجار المستجيرين وأمان الخائفين ، اللهم إن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب شقياً أو محروماً أو مطروداً أو مقترأ عليّ في الرزق فامح اللهم بفضلك شقاوتي وحرمانني وطردي وإقتار رزقي .. وجاء فيه : إلهي بالتجلي الأعظم في ليلة النصف من شهر شعبان المعظم ، التي يفرق فيها كل أمر حكيم ويبرم .. وهي من زيادة الشيخ ماء العينين الشنقيطي في كتاب (نعت البدايات).

١ - مجلة الأزهر ، المجلد الثاني ص ٥١٥ .

٢ - رواه البيهقي من طريق العلاء كما تقدم . .

وهو دعاء لم يرد عن النبي ﷺ قال بعض العلماء إنه منقول بأسانيد صحيحة عن صاحبين جليلين ، هما عمر بن الخطاب وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهما ، وعمر من الخلفاء الراشدين الذي أمرنا الحديث بالأخذ بستهم ، ونص على الاقتداء به وبأبي بكر الصديق في حديث آخر ، وأصحاب الرسول كالنجوم في الاقتداء بهم كما روي في حديث يقبل في فضائل الأعمال .

ولكن الذي ينقصنا هو الثبوت من أن هذا الدعاء ورد عن عمر وابن مسعود ولم ينكره أحد من الصحابة ، كما ينقصنا الثبوت من قول ابن عمر وابن مسعود عن هذا الدعاء : ما دعا عبد قط به إلا وسع الله في مشيئته^(١) .

ومهما يكن من شيء فإن أي دعاء بأية صيغة يشترط فيه ألا يكون معارضاً ولا منافياً للصحيح من العقائد والأحكام . وقد تحدث العلماء عن نقطتين هامتين في هذا الدعاء ، أولاهما ما جاء فيه من المحو والإثبات في أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ وهو سجل علم الله تعالى لا يتغير ولا يتبدل ، فقال : إن المكتوب في اللوح هو ما قدر الله على عباده ومنه ما هو مشروط بدعاء أو عمل وهو المعلق والله يعلم أن صاحبه يدعو أو يعمل وما هو غير مشروط وهو المبرم ، والدعاء والعمل ينفع في الأول لأنه معلق عليه ، وأما نفعه في الثاني فهو التخفيف ، كما يقال : اللهم إني لأسألك رد القضاء بل أسألك اللطف فيه وقد جاء في الحديث «إن الدعاء ينفع فيما نزل وما لم ينزل» والنفع هو على النحو المذكور .

روى مسلم أن النبي ﷺ سئل : فيم العمل اليوم : أفيم جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما يستقبل ؟ قال «بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير» قالوا : ففيم العمل ؟ قال : «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» وفي رواية : أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل ؟ فقال «من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ، اعملوا فكل ميسر ثم قرأ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَكَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخَلَ

١ - أخرجه ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا .

وَأَسْتَفْتَى ⑧ وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَى ⑨ فَسَيَّرَهُ لِعَصْرَى ⑩ [الليل : ٥ - ١٠] ولم يرتض بعض العلماء هذا التفسير للمحو والإثبات في اللوح المحفوظ ، فذلك يكون في صحف الملائكة لا في علم الله سبحانه ولوحه المحفوظ^(١) .

والنقطة الثانية : ما جاء فيه من أن ليلة النصف من شعبان هي التي يفرق فيها كل أمر حكيم و يبرم : فهو ليس بصحيح ، فقد قال عكرمة : من قال ذلك فقد أبعد النجعة ، فإن نص القرآن أنها في رمضان ، فالليلة المباركة التي يفرق فيها كل أمر حكيم نزل فيها القرآن ، والقرآن نزل في ليلة القدر . وفي شهر رمضان . ومن قال : هناك حديث عن النبي ﷺ يقول «تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان ، حتى إن الرجل لينكح ويولد له وقد أخرج اسمه في الموتى» فالحديث مرسل ، ومثله لاتعارض به النصوص^(٢) ، وإن حاول بعضهم التوفيق بينهما بأن ما يحصل في شعبان هو نقل ما في اللوح المحفوظ إلى صحف الملائكة .
ولا داعي لذلك فالدعاء المأثور في الكتاب والسنة أفضل^(٣) .



س : هل هناك دعاء مخصوص لقيام الليل يكرره الإنسان حتى يقضي الله حاجته؟

ج : روى مسلم أن النبي ﷺ قال «إن في الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله تعالى خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه الله إياه ، وذلك كل ليلة» وفي البخاري ومسلم قوله ﷺ «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر

١- ذكره الألبوسي والفخر الرازي في التفسير . .

٢- المواهب اللدنية ، ج ٢ ص ٢٦٠ .

٣- وللإستزادة يمكن الرجوع إلى مجلة الأزهر ، المجلد الثاني ص ٥١٥ والمجلد الثالث ص ٥٠١ ومجلة الإسلام المجلد الثالث ، العددان ٣٥ ، ٣٦ .

له» وروى الترمذي بسند صحيح أنه ﷺ قال «أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر ، فإن استطعت أن تكون ممن ذكر الله تعالى في تلك الساعة فكن».

وليس هناك دعاء مخصوص لقضاء الحاجات في هذه الساعة المباركة ، فادع الله بما تريد ، مع الخشوع والحضور بقلبك وذهنك ، ومع مسارعتك إلى مرضاة ربك وعدم معصيته والبعد عن الحرام ، فإن الحرام يحول دون استجابة الدعاء.



س : هل هناك دعاء يدعو الإنسان به إذا لبس ثوباً جديداً ؟

ج : جاء في كتاب (الأذكار) للنووي عن أبي سعيد الخدري : كان رسول الله ﷺ إذا استجد ثوباً سماه باسمه -عمامة أو قميصاً أو رداء- ثم يقول «اللهم لك الحمد ، أنت كسوتنيه ، أسألك خيره وخير ما صنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له»^(١).

وروى الترمذي عن عمر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «من لبس ثوباً جديداً فقال : الحمد لله الذي كساني ما أوارني به عورتني وأتجمل به في حياتي، ثم عمد إلى الثوب الذي أخلق فتصدق به كان في حفظ الله وفي كنف الله عز وجل وفي سبيل الله حياً وميتاً».

وفي (الترغيب والترهيب) للحافظ المنذري حديث رواه الحاكم وصححه جاء فيه «ومن لبس ثوباً جديداً فقال : الحمد لله الذي كساني هذا وألبسنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه».



١- حديث صحيح رواه أبو داود والنسائي ، ورواه الترمذي وقال : حديث حسن .

وردت من السيد / بيتر أدولف ديترش برونز ، من رابن باخ بألمانيا الاتحادية
أسئلة متنوعة عن الابتهالات نوردها مع الإجابة عليها فيما يلي :

س ١ : ما مفهوم الابتغال في نظر الشرع الإسلامي ، وهل هناك فرق بينه وبين
الدعاء ؟

ج : مفهوم الابتغال في نظر الشرع لا يختلف عن مفهومه في اللغة العربية ،
فالبهل والابتغال في اللغة الاسترسال والاجتهاد . قال لبيد :

في كهول سادة من قومه نظر الدهر إليهم فابتهل
أي اجتهد الدهر في إهلاكهم .

والابتغال في الدعاء معناه الاسترسال والاجتهاد فيه ، ومنه قوله تعالى ﴿ تَعَالَى ﴾
نَبْتَهْلُ فَنَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿ [آل عمران : ٦١] أي نجتهد في الدعاء
باللعن على الكاذبين^(١) .

ومن هذا يعلم أن الدعاء طُلب من العبد لله ، والابتغال اجتهاد في هذا الطلب .
أي أن الابتغال أخص من مطلق الدعاء . والابتهالات المعروفة الآن مزيج من
دعاء وثناء ومدح وذكر لله تعالى ، ونعمة التضرع في ذلك واضحة .



س ٢ : هل مصطلح الابتغال الديني يمكن أن يفهم منه نص الابتغال المكتوب
فقط . أو لابد أن يكون النص مجوداً بصوت حسن ؟

ج : الابتغال الديني تضرع إلى الله سبحانه ، ودعاء مشفوع بشدة الرغبة في
قبوله والرهبة من عدم قبوله . وحتى يكون مرجو القبول ينبغي أن تلتزم فيه آداب
الدعاء ، التي جاء بعضها في قوله تعالى ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٥] والمراد بالخيفة الإسرار به ليكون أقرب إلى

١ - تفسير القرطبي ج ٤ ص ١٠٤ .

الإخلاص وعدم الرياء وفي قوله تعالى ﴿ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ
 الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ [الأعراف : ٢٠٥] والمراد بالخفية الخوف من الله أن
 يرد الدعاء . وفي قوله تعالى ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَعَبًا
 وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ ﴾ [الأنبياء : ٩٠] والخشوع هنا عدم انشغال الفكر
 بغير الله حين الدعاء ، والتزام الأدب والسكون عند مناجاته . والابتهاال بها فيه من
 تضرع ورغبة ورهبة وخشوع ، يغلب أن يكون بصوت فيه تحزن قد يسلم إلى البكاء ،
 على نحو ما يكون في قراءة القرآن الكريم من التحبير والتجويد والتحنن الذي
 يؤثر في القلوب . وقد صح أن النبي ﷺ وقف يستمع إلى قراءة أبي موسى
 الأشعري دون أن يحس به ، ولما أخبره قال : لو علمت أنك تسمعني لحبرتي لك
 تحبيراً . وهو ﷺ كان يتأثر لسماع القرآن ويبكي أحياناً ، كما حدث عند سماعه
 لقراءة عبدالله بن مسعود لقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا
 بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ٤١] .

وإذا كان من آداب الدعاء والابتهاال الإسرار به فقد يكون الجهر به مناسباً
 لظروف معينة ، كما إذا كان جماعياً يشترك فيه غير المبتهل بالتأمين على الدعاء كما في
 صلاة الاستسقاء ، حيث تكون الخطبة مشتملة على استغاثة وتضرع أن ينزل الله
 عليهم المطر ، كما فعل النبي ﷺ .

ولاشك أن الصوت الحسن الخاشع لله يؤثر أكثر مما يؤثر الصوت العادي في
 مثل هذه المواقف . وذلك مع التزام القراءة الصحيحة فيما يتخلل الابتهاالات من
 قرآن ، بعيداً عن الألحان التي تؤدي بها الأغاني والأناشيد الأخرى .



س ٣: هل يمكن الحكم على الابتهاالات الدينية بأنها دعاء مجود بصوت حسن؟

ج : نعم ، يمكن الحكم عليها بذلك في عرف الناس ، وإن كانت تؤدي شرعاً بدون
 ذلك فهي دعاء سبحانه ، قد يؤدي سراً دون حاجة إلى صوت حسن يؤثر في السامعين .



س ٤: هل يعتبر الابتهاال الديني عبادة ، وهل هناك آثار أو نصوص شرعية خاصة به ؟

ج : الابتهاال الديني دعاء ، والدعاء عبادة أمر الله بها في مثل قوله تعالى ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] إلى جانب الآيات السابقة في البند رقم ٢ وفي الحديث أن النبي ﷺ قال : «الدعاء هو العبادة»^(١).

وإذا كان المراد من السؤال عن الآثار والنصوص الشرعية ، ما يدل على أنه عبادة فقد ذكرنا ذلك ، أما إذا كان المراد نصوصاً شرعية ماثورة في ابتهاالات وأدعية خاصة فإن المراد من ذلك كثير ، وهو مذكور في القرآن والسنة ، اقرأ من سورة البقرة الآيات : [٢٠١ ، ٢٨٦] ومن سورة آل عمران الآيات : [٨ ، ٥٣ ، ١٤٧ ، ١٩١ ، ١٩٤] ومن سورة إبراهيم الآيتين : [٤٠ ، ٤١] ومن سورة الفرقان الآيتين : [٦٥ ، ٧٤] . و كتب الأحاديث النبوية فيها كثير من الأدعية ، ومن أجمعها كتاب (الأذكار المنتخبة من كلام سد الأبرار) للإمام النووي . والدعاء بالمأثور أفضل من الدعاء المصنوع إن كان يغني عنه .



س ٥: إذا كان الشرع الإسلامي يبيح الابتهاال فما الصورة التي يجب أن يكون عليها ، وهل هناك شروط لصحته أو قبوله ؟

ج : سبق في البند رقم ٢ شروط وآداب الدعاء ، ويزاد عليها البعد عن تناول المحرمات ، فإن تناول المحرمات يمنع قبول الدعاء ، وقد ثبت في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ ذكر الرجل أشعث أغبر يمد يده إلى السماء ويقول : يا رب يا رب ، ومطعمه حرام وملبسه حرام وغذّي بالحرام فأنّي يستجاب له ؟ فمن أراد أن يكون مستجاب الدعوة فليكن مطعمه من الطيبات مما أحل الله ، إلى جانب البعد عن المحرمات الأخرى .



١- رواه أبو داود والترمذي وقال : حسن صحيح .

س ٦: ما حكم الشرع على أنواع الابتهالات التي تشاهد الآن مثل الابتهاال الفردي والابتهاال مع البطانة ، والابتهاال مع الآلات الموسيقية والابتهاالات في أذكار الصوفية ؟

ج : الابتهاالات الفردية والابتهاالات مع البطانة باقية على الأصل في أنها حلال ولا يوجد نص يمنعها لذاتها ، فإن عرض لها عارض من رياء أو سمعة أو تشويش على المصلين أو إيذاء لمريض أو إخلال بحرمة المسجد أو نحو ذلك كانت ممنوعة لهذه العوارض .

أما الآلات الموسيقية فهي في أصلها حلال ولا يجرمها إلا عارض لها ، مثل الاستعانة بها على محرم كحفلات الخمر والرقص ، أو كانت ملهية عن واجب أو مسببة لضرر كإزعاج الآمنين والتشويش على المتعبدين .

والمشاهد أن الذين يشهدون مجالس الابتهاالات مع الآلات الموسيقية يشدهم الإعجاب بأمرين الابتهاال نفسه مادة وأداء ، والنغمات الموسيقية . والابتهاال من حيث كونه تضرعاً لله تقل فيه الرغبة والرغبة والخشوع مع وجود الأصوات الموسيقية المؤثرة عليه ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ [الأحزاب : ٤] ومن هنا تكون الابتهاالات مع الموسيقى أقل أثراً دينياً في نفس المبتهل ومن يستمعون إليه، ولهذا تكون الموسيقى مكروهة مع الابتهاال إن قصد به التقرب إلى الله ، أما إذا قصد به إمتاع النفس بكلام حسن وأداء جميل فحكمه حكم الأغاني والأناشيد العادية وهي غير محرمة لذاتها بل لما يعرض لها من اشتهاها على مادة ممنوعة ، أو أدائها بلحن فيه فتنة وإثارة ، أو مصاحبتها لمحرم من اختلاط مريب أو شرب محرم ونحوهما أو إلهائها عن واجب .

والابتهاالات في أذكار الصوفية أي الأناشيد التي تنظم بها حلقات الذكر ما دام لم تصحبها آلات طرب وما دام الذكر ملتزماً لأداب العبادة فلا مانع منها شرعاً ، فقد كانت الأغاني مشجعة للصحابة وهم يعملون في حفر الخندق وغيره ، ولا ينكر عليهم النبي ﷺ .



س ٧: تذايع بعد قراءة القرآن وقبل أذان الفجر بعض الابتهاالات الالائنية ، وبخاصة في شهر رمضان . فهل هذا تقليد أو له أصل شرعي ؟

ج : لم تكن هذه الابتهاالات موجودة في أيام النبي ﷺ ولا في عهد السلف الصالح ، بل هي أمر مستحدث ، والعلماء فيه فريقان ، بعضهم قال بمنعها لأنها بدعة في الدين والحديث يقول «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد»^(١) ، وبعضهم قال بعدم منعها ، لأن كل أمر مستحدث لا يحكم عليه بالرد . فمن المستحدثات المفيدة غير الضارة ما قبله الصحابة ، كاجتماع المسلمين على إمام واحد في صلاة التراويح في المسجد وقال عمر : نعمت البدعة هذه .

وجاء في كتاب الفقه على المذاهب الأربعة الذي نشرته الأوقاف المصرية^(٢) أن التساييح والاستغاثات قبل الأذان بالليل ونحو ذلك بدع مستحسنة . لأنه لم يرد في السنة ما يمنعها ، وعموم النص يقتضيها . انتهى .

وهي على كل حال دعاء في وقت السحر ، والله يقول عن المتقين ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَعْفِرُونَ﴾ [الذاريات : ١٨] وفي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم «ينزل الله تعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل فيقول عز وجل : من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفري فأغفر له» ؟ .

هذا هو رأي الجمهور ، وعند الحنابلة هي بدعة سيئة ، قال في (الإقناع) وشرحه من كتب الحنابلة : وما سوى التأذين قبل الفجر من التسبيح والنشيد ورفع الصوت بالدعاء ونحو ذلك في المآذن فليس بمسنون . وما من أحد من العلماء قال : إنه مستحب - لعله يقصد علماء الحنابلة - بل هو من جملة البدع المكروهة ، لأنه لم يكن في عهده ﷺ ولا في عهد أصحابه ، وليس له أصل فيها كان على عهدهم يرد إليه ، فليس لأحد أن يأمر به ولا ينكر على من تركه .

١- رواه البخاري ومسلم . ٢- ص ٢٣٨ .

وجاء في كتاب (تليس إبليس) لابن الجوزي قوله : ولقد رأيت من يقوم بليل كثير -أي جزء كبير من الليل- على المنارة فيعظ ويذكر ويقرأ سورة من القرآن بصوت مرتفع فيمنع الناس من نومهم ، ويخلط على المهجدين قراءتهم وكل ذلك من المنكرات .

وقد ذكر المقرئ في خطه^(١) وما بعدها أن التسيح ليلاً على المآذن لم يكن من فعل السلف ، وأول ما عرف ذلك كان في أيام موسى عليه السلام ، وهم في التيه بعد غرق فرعون . ثم ذكر تطوره وما يصحبه من نشيد وآلات حتى نهاية عهد بني إسرائيل في القدس .

وذكر أن أصله في مصر بدأ من أول عهد الفتح الإسلامي في ولاية مسلمة ابن مخلد ، وإشارة شرحبيل بأن يبدأ الأذان من منتصف الليل إلى قرب الفجر ، حتى لا يضرب بالنواقيس في الكنائس في هذه الفترة ، وذكر أن الطولونيين رتبوا المكبرين والمسبحين ليلاً . ومن ذلك اتخذ الناس عادة التسيح على المآذن قبل الفجر .

فالخلاصة أن الابتهالات قبل الفجر لا يوجد ما يمنعها شرعاً عند جمهور العلماء ، فهي وإن كانت تقليداً موروثاً لم يكن في عهد السلف الصالح - هي من البدع المستحسنة .

وإذا كان بعض النص يسيئون استعمالها عن طريق إذاعتها بمكبرات الصوت التي تزعج بعض ذوي الأعذار فإن ذلك لا يمنع أصل إباحتها ، وذلك بإنصات المستمعين إليها في المساجد بخشوع محافظة على حرمة المسجد ، ويمنع إيذاء ذوي الأعذار من جراء إذاعتها بمكبرات الصوت .



س : وردت نصوص يؤخذ منها أن الدعاء يرد القضاء وأن صلة الرحم تزيد في العمر ، فكيف يكون ذلك مع أن قضاء الله واحد وعلمه لا يتغير ؟

ج : روى الحاكم وصححه وابن حبان في صحيحه أن النبي ﷺ قال «لا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر ...»^(١) وجاء في حديث البزار والطبراني والحاكم «لا يغني حذر من قدر ، والدعاء ينفع مما نزل وما لم ينزل ، وإن البلاء ينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة» ومعنى يعتلجان : يتصارعان ويتدافعان .

قال العلماء في هذا : إن القضاء نوع من علم الله تعالى بما سيكون عليه حال العبد قبل خلقه ، ومنه قضاء مبرم لا بد من وقوعه لا يدفعه ولا يرفعه شيء ، ومنه قضاء معلق في وقوعه أو رفعه على شيء ، فالموت مثلاً قضاء مبرم لا بد منه ولا يدفعه شيء ، وطول العمر قضاء معلق على فعل ، مثل صلة الرحم وعمل خير آخر ، كما في حديث «من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه»^(٢).

ومن هذا النوع المعلق أن يعلم الله سبحانه أن شيئاً سيحصل للعبد عند دعائه ، وأن مرضاً سيصيبه لا يبرأ منه إلا بالدعاء والعلاج ، فكل حركات العبد والكون معلومة مكشوفة لله تعالى ، ولكنها مغيبة عنا ، ولذلك أمرنا بطاعته ، ومن الطاعة الدعاء الذي يؤكد الإنسان فيه إيمانه بضعفه وحاجته إلى الله ، وقد عبر عن هذا في الحديث بأنه العبادة أو مخ العبادة ، فإذا حصل الدعاء وتم ما أراد الله كانت إرادته مرتبطة بدعاء العبد كما علمها من قبل ، وما دام القضاء مغيباً علينا فعلى امتثال أمر الله في الدعاء وغيره ، ولو علمنا ما قدر لنا ما كان هناك معنى للتكليف ولركدت حركة الحياة .



١- رواه الترمذي وقال : حسن غريب ، أي رواه راو واحد فقط .
٢- رواه أحمد وغيره .